

الفصل الرابع

النهضة في اسبانيا

لقد تعاقبت على اسبانيا غزوات الغزاة ، لكنها جميعاً لم تستطع أن تفرض لغتها على أهل البلاد ، وهي في ذلك شبيهة بالفرس التي لبثت لغتها قائمة في وجه الفاتحين ، ففي القرون الثلاثة الخامس والسادس والسابع ، كانت اسبانيا خاضعة لحكم الفوط ، لكن لم يترك هؤلاء في لغتها إلا أثراً طفيفاً ؛ ثم جاءت قرون سبعة كانت السيادة فيها للعرب ، ومع ذلك بقيت اللغة الاسبانية حافظة لكيانها وإن ضمت إليها طائفة من الألفاظ العربية ، أما بناء العبارة وأوضاع الكلام فلم تتغير ؛ والشطر الأعظم من الأدب الاسباني مكتوب باللغة الكاستيلية « القشتالية » التي كان مركزها في « توليدو » « طلميطلة » كما كانت اللغة التسكانية هي لغة الأدب في ايطاليا ، وكان مركزها فلورنسه ، وكما باتت لهجة أهل الوسط الشرقي في إنجلترا لسان الأدياء ، وكانت تتمثل في أكسفورد ولندن وأول من نبغ من الكتاب الاسبان في أوائل النهضة هو « جوان رويز (Juan Ruiz) » « حوالي ١٣٥٠ ميلادية » الذي كان في انتاجه وفي موقفه من الحركة الأدبية شبيهاً بشوسر^(١) في الأدب الانجليزي ، حتى لقب « بشوسر الاسباني » ، وقد صور لنا في أدبه حالة اسبانيا وأهلها في القرن الرابع عشر

ثم جاء « لوبيز دي أايالا (Lopez de Ayala) » (١٣٣٢ - ١٤٠٧) الذي نظر إلى العالم الفاسد من حوله نظرة قائمة ؛ وقد لبث « دي أايالا » بضعة أعوام سجيناً في إنجلترا ؛ وعاش في عهد أربعة ملوك غلاظ قساة هم « بطرس القاسي » و « هنري الثاني » و « يوحنا الأول » و « هنري الثالث » وأرخ للحوادث في ذلك العهد في « مذكراته " Les bhroniques " ؛ ومن آثاره الأدبية الأخرى أنه ترجم للاسبانية أجزاء من المؤرخ اللاتيني « لقي »^(٢)

(١) اقرأ عن شوسر الفصل القادم .

(٢) راجع فصل الأدب الروماني في الجزء الأول من قصة الأدب في العالم .

والكاتب الإيطالي « بوكاتشو » وكذلك كانت له محاولات في قرض الشعر على الأبحر المستعذبة في عصر النهضة ، فكان بحق بشيراً بالنهوض الأدبي في اسبانيا .

ومن كتّاب اسبانيا البارزين كذلك « جورج مانريك Gorge Manrique » (حوالي ١٤٤٠ — ١٤٧٥) الذي عالج بأدبه الجوانب المألوفة من الحياة الإنسانية ، ومن ثم كانت شهرته الواسعة ؛ وكذلك اشتهرت في النهضة الاسبانية امرأة متصوفة هي « سانتا تريزا Santa Teresa » (١٥١٥ — ١٥٨٢) إذ عرفت بشعرها وقصصها وخطاباتها الأدبية ودعوتها إلى الإصلاح الديني ، ثم أعقبها في الظهور أديب اسبانيا العظيم « سرفانتيز » وسنتناوله بشيء من التفصيل لمسكاته العظيمة في آداب العالم .

سرفانتيز Cervantes :

كانت حياة « ميخويل دي سرفانتيس سافيدرا » Miguel de Cervantes "Saavedra" (١٥٤٧ — ١٦١٦) معركة طويلة متصلة ، حارب بها البؤس والفقر والحظ العائر ؛ فلما تجد بين رجال الأدب في العالم كله من احتفل من العناء ما احتمله « سرفانتيز » . لم يكن حظ سرفانتيز من التعلم كبيراً ، فقد وقف عند مرحلة التعليم الأولى ، وليس صحيحاً ما زعمه بعض مؤرخيه من أنه دخل الجامعة ، إذ حسبنا أن نعلم أنه يعترف بجعله باللاتينية ، لأن الجامعات في ذلك العهد لم تكن تعنى بشيء عنائها بتلك اللغة ، ولما كان صبيّاً عمل خادماً لأحد الكرادلة ، وكان لسيدة الكردنال ابنٌ ربطته أواصر الصداقة بسرفانتيز ، ثم حدث لابن الكردنال أن اقتتل في سبيل فتاة أحبّها مع رجلين شهرا في وجهه السلاح ، وكان يعاونه في القتال صديقه سرفانتيز ، فقتلا الرجلين معاً ، وفرا هار بين إلى دير ، ومن ثم هاجرا إلى بلد أجنبي متنكرين في ثياب الرهبان ، وكان سرفانتيز إذ ذاك قد بلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً .

ونشبت حرب بين اسبانيا وتركيا ، فأسرع سرفانتيز إلى صفوف المحاربين ، لكنه لم يلبث أن فقد ذراعه اليسرى في معركة « لپانتو » التي انتصر فيها الأسطول الاسباني على الأسطول التركي ؛ فأراد سرفانتيز أن يعود إلى بلاده ، وطلب إلى قادته أن يزودوه بخطابات التوصية للملك اسبانيا فليب الثاني ؛ وظفر بما أراد ، وأقلع من نابلي على ظهر سفينة

تحمّل جنداً وتقصداً إلى اسبانيا ، لكن السفينة سرعان ما سقطت غنيمه في أيدي القراصنة الجزائر بين قرب شاطي الرقييرا الفرنسية ، وكان من سوء طالعه أن وجد القراصنة خطابات التوصية التي كان يحملها موجهة إلى الملك ومرسلة من أعظم القواد ، فرسخت عندهم العقيدة أن أسيرهم رجل له مكانته ، فضاعفوا في فديته وجعلوها مبلغاً طائلاً من المال لم يكن في وسع أسرته أن تدفعه ؛ وبقي سرقانتيز في الأسر خمس سنوات عاش خلالها حياة هينة ، إذ ظن آسروه أنه من أسرة نبيلة فلم يكلفوه ما كلفوا سواه من العمل الشاق ؛ ثم جاء راهب من اسبانيا ليفاوض في افتداء النبلاء الأسرى ، وقد اتصل بسرقانتيز وأحبه فافتداه فيمن افتدى ، وكان على ظهر سفينة على وشك أن تقلع به إلى القسطنطينية لتبيسه رقيقاً في أسواقها بعد أن طال انتظار الأسرى لفديته ؛ ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن أمه كانت طوال تلك السنين تحاول ما وسعها أن تجمع لابنها الفدية المطلوبة حتى ناءت في سبيل ذلك تحت عبء باهظ من الدين .

عاد سرقانتيز إلى اسبانيا فأطرح الجندي ليعتنق الأدب ، وأخذ يقرض التصائد ويكتب الروايات التمثيلية وينشئ نقداً أدبياً ؛ فكتب كثيراً من قصائد المدح لعله يجد من يحميه بين رعاة الأدب الأغنياء ولكنه لم يصب نجاحاً ؛ وكاد لا يجد ما يقتات به ، فأخذ يكتب المؤلفين إعلانات منظومة عن كتبهم ليعيش من كسبه الضئيل ؛ ثم تزوج سرقانتيز من أرملة غنيمه ، وحاول أن يكتب للمسرح فأخرج له ما يقرب من ثلاثين رواية جاءته بربح قليل مع أنها على حد تعبيره « لم تقابل من النظارة بالتذائف ترمي على الممثلين وبالصفير وبالمواء » .

وكانت اسبانيا حينئذ تعد أسطولها العظيم « الأرمادا » لتتحارب به إنجلترا ، فعين سرقانتيز في إحدى الوظائف الرئيسية في الجيش ، لكن شاء جده العاثر أن تضيع منه مائتا جنيهه فزج في السجن ، ثم قدم المحاكمة ، فاختم في عامين ظهر بعدها في « بلد الوليد » وكانت سنه سبعة وخمسين عاماً ، وكان معه مخطوط آيته الخالدة « دون كيشوت » Don Quichote ولم يلبث الجزء الأول من هذا الكتاب أن صادف رواجاً شديداً ، لكنه لسوء حظه لم يكسب منه إلا قليلاً لأن حقوق الطبع لم يكن معترفاً بها ، فسطا على الكتاب من سطا ، وهرب ربح الكتاب إلى سواه .

لم ينتطع سرفانتيز عن إنتاجه الأدبي ، وأخرج كتاباً ثانياً عنوانه « القصص النموذجية » وهي مجموعة من القصص الرمزية ، وكذلك أخرج قصيدة طويلة عنوانها « رحلة إلى بارناسس ثلاثية القافية »^(١) (Voyage to Parnassus in terza rima) ، لكنه في تلك الأثناء كلها لم ينقطع عن التفكير في أعز آثاره لديه وأدناها إلى قلبه ، وهو « دون كيشوت » فأخرج الجزء الثاني منه وأعطاه للناس عام ١٦١٥ ، وعندئذ طبقت شهرته الخافقين ، وترجمه إلى الإنجليزية عندئذ « سكاتن Skelton » لكنه برغم ذلك كله ما انفك يعيش في فقر مدقع وضئك شديد

قصة دون كيشوت ضحكة ساخرة يوجهها سرفانتيز إلى ما يلعب بخيال الانسان من مثل عليا كثيراً ما تكون لسوء الحظ متنافرة مع حقائق الحياة العملية ، فدون كيشوت رجل نبيل فقير يعيش في أرض لا زرع فيها ، أزاح المطر عن سطحها التربة الخصبة ولم يبق منها إلا صخوراً ورمالاً ، فأصبح نبلاًؤها كزارعها في مسغبة لا تنبت لهم الأرض ما يقيم أودهم ، فيفر دون كيشوت من هذا الواقع الأليم إلى دنيا الخيال ، ويأخذ في قراءة كتب عن فروسية العصور الوسطى ، فما هو إلا أن يملك عليه اللب هذا اللفظ الفخم ، وتلك المشاعر الجياشة العالية ، فيشتري كل ما يقع عليه من كتب الفروسية ، لكنه يحتاج مالا يشتري هذه الكتب فلا يسهه إلا أن يبيع أرضه الجداء جزءاً جزءاً وبديل أن يعنى بفلاحة أرضه واستنباتها أخذ يناقش قسيس القرية (وكان قسيساً متجراً في العلم) ويجادل حلاق القرية عن تقدير الفرسان القدامى والمفاضلة بينهم ، ترى هل يفضل « پامرين » الفارس الانجليزي زميله الغالي « أماديس » أم العكس ؟ تلك وأمثالها كانت في نظره من أعوص المسائل التي لامندوحة له عن إدمان القراءة حولها حتى يتبينها ويحتلها ، وهكذا تدرج به الأمر حتى أصيب المسكين بنوع من الجنون الخفيف ، وذلك أنه رأى حتماً لازماً عليه أن يكون هو نفسه فارساً كهؤلاء الفرسان

(١) " Terza rima " هذه الألفاظ إيطالية الأصل وهي تطلق على قصائد من الشعر تتكون من وحدات . كل وحدة ثلاثة أبيان . ترى في الوحدة الأولى البيت الأول والثالث من قافية واحدة بينما البيت الثاني يكون من قافية البيت الأول والبيت الثالث من الوحدة التالية وهكذا . ولقد ترجمناها حرفياً « بالقافية الثلاثية » . وأما بارناسس فهو الجبل الذي تسكنه ربات الشعر ببلاد اليونان .

الذين يقرأ عنهم القصص ، وأن يضرب في أرجاء الأرض على ظهور جواده وفي شكته ليجت عن مفاصرة كتلك المعامرات التي استهدف لها أبطال الفرسان ، وأن يمارس بنفسه كل ما قرأ من أعمال الفرسان السابقين ، فيثأر لكل ضروب العدوان ويهب نفسه لأخطار ومغامرات لو أصابه التوفيق فيها لكتب له الخلود ، وهكذا رسخت عند المسكين تلك العقيدة رسوخاً حذاً به أن يهيم بالتنفيذ .

وكان فيما ورثه عن آباءه شككة يعاوها الصدا وليس لها غطاء للرأس . لكنه لم يابث أن أكل تقصها بقطع من الورق المقوى ، وكان له كذلك سيف مكسور المنبض فتسرع يربط أجزاءه بعضها ببعض ، وله حربة تحيلة وحصان هزيل لكنه ظن أنه جواد كريم ، أين منه جواد الاسكندر الأكبر المشهور الذي يطلق عليه « بيوسفالس » (ذو الرأسين) ؟ وهل يجوز أن يكون لجواد الاسكندر اسم خاص به ولا يكون لجواده هو اسم ؟ فأنفق أربعة أيام كاملة يفكر ويفكر ماذا عسى أن يسمى حصانه ذلك الكريم ، وأخيراً استقر رأيه على أن يتخذ « روسناتي » اسماً له ، ثم نشأت له بعد ذلك مشكلة أخرى ، وهي أن يختار لنفسه اسماً خليقاً أن يقرن إلى مثله ، فلا يصح أن يقنع باسمه العادي « كويسارا » ، وقلب صحائف كتبه فإذا به يرى « أماديس » الفارس المشهور لا يقنع باسمه فيضيف إليه اسم بلده ، ولهذا أطلق فارسنا على نفسه اسم « دون كيشوت لمانشا » وبهذا ظن أنه يزيد من شرف بلده « لمانشا »

بدأ دون كيشوت رحلته مرتدياً شكته العتيقة المهشمة المضحكة ؛ فسافر يوماً كاملاً دون أن يصادف مظلوماً يعمل على إنصافه ، أو وحشاً ضارياً يلاقيه فيفتك به ، أو فتاة أحاط بها الخطر فيسرع إلى إنقاذها ؛ وأخيراً بلغ فندقاً صغيراً يقوم على إدارته رجل على شيء من بلادة الدهن ، وفيه خادمتان فاجرتان ، فتبدولعينه هاتان المرأتان « عذراوين جميلتين جالستين في غير تصنع عند باب الحصن » فيوجه الخطاب إليهما في ألفاظ رنانة ومعان شعرية خلافة ، وتنصت له العاهرتان في صبر ما كر ، حتى إذا ما فرغ من خطابه سألتاه : « هل تريد طعاماً ؟ » فمتذكر دون كيشوت أنه لم يأكل طيلة نهاره ، وأنه لا بد له من قوت يسد به رمقه ليحفظ بقواه لما هو مقبل عليه من أهوال جسام ، فيطلب الطعام ويأكل ؛ لكنه مؤرق الجنبين مهموم ، لأنه يعلم أنه ليس فارساً حقاً ، إذ لا بد للفارس

الحق أن ينصب فارسا بصورة رسمية تواضع عليها العرف ؛ فقول لصاحب الفندق أن يضربه على رأسه بالسيف تلك الضربة التقليدية التي لا يكون الفارس فارسا إلا بها ، وأن ينطق بالعبارات المألوفة التي تقال عند تنصيب الفرسان ، ويطيئه صاحب الفندق ، لأنه كسائر أصحاب الفنادق لا يترددون في إرضاء زبائنهم ماداموا يدفعون ما يطلب اليهم أن يدفعوه .

ثم لم يلبث دون كيشوت أن أبدى جهلا شنيعا بشئون هذه الدنيا العملية ؛ فيها هوذا صاحب الفندق يقدم له قائمة بالحساب ، فلا يجد في جيوبه مليما واحداً ، ولم يحمل المال مع أنه لم يقرأ قط في قصص الفرسان أن فارسا حمل ماله معه في رحلاته ومضامراته ؛ ولم يدر دون كيشوت أن مظاهر الشرف والفروسية لا بد لها من مال ، فأفهمه صاحب الفندق هذه الحقيقة ، وبهذا تلقى أول درس في عيوب هذا العالم ونقائصه ؛ ويعود دون كيشوت إلى داره ليبيع هذا ويرهن ذلك ، ويخرج في كلتا الحالتين بصفة المغبون ، حتى تجمع لديه قدر ضئيل من المال .

وقبل أن يغادر منزله هذه المرة تذكر فجأة أنه لا بد له من تابع كما كان لسائر الفرسان ، لكن دون كيشوت لم يكن يستطيع أن يظفر بمثل هذا التابع إلا إذا أغراه بالمال والسلطان ؛ وكان له جار يدعى « سانكويانزا » ، وهو رجل شريف لكنه محدود الذكاء ، فأخذ دون كيشوت يشرح له كيف أنه مقبل على حروب تحقق المثل الأعلى ، وأنه لا ريب منتصر ظافر ، ثم وعد سانكويانزا أن يمنحه أول جزيرة يغزوها فتكون ملكا خالصا له ؛ فرضى سانكويانزا أن يكون تابعا لدون كيشوت لعله يحقق هذا المجد الموعود ، وفي الوقت عينه يجد طريقا للخلاص من زوجته ، ثم هو يمتطي بغله ويرافق دون كيشوت في رحلته .

ويأخذ سرفانتيز في وصف الرحلة وما وقع فيها من فروسية كاذبة ، في صورة فكهة ساخرة : فيها هوذا يصادف في بعض الطريق فلاحا يضرب خادمه ، فيطلب إليه الفارس المخدوع أن يمسك عن ضربه وإلا طعنه بجربته ، فيجيب الفلاح إن ضرب الخادم حق له بحكم القانون ، فيرد عليه دون كيشوت إنه مستعد لافتداء الخادم بالمال ، فلا يمانع الفلاح ويمسك عن ضربه ، فيمضي دون كيشوت وينتظر الفلاح عبثا أن يعود

نه الفارس بالمسال ، وتغرب الشمس ويسخط الفلاح فينقض على خادمه المسكين ضرباً مبرها ليثأر وينتقم ، وهكذا أصلح دون كيشوت ما صادف من ظلم وإجحاف ! وهذا دون كيشوت يبصر طواحين الهواء دائرة ، فيظنها وحوشاً كواسر تنهباً لاوثوب عليه ، فيرفع ربحه في يده ويندفع نحوها في حماسة بالغة حتى يصطدم بذراع إحداها ويهوى إلى الأرض ، فإذا أفاق ظن أن جماعة من السحرة قد ردت الوحوش طواحين هواء لتنقذها منه ! وهكذا .

وبعد ، فإذا يقصد سرفانتيس بكتابه دون كيشوت ؟ إنه يريد قبل كل شيء أن يقضى على عصر الفروسية الذي ملأته الأوهام ليفتح أعين الناس لعلها ترى حقائق الدنيا الواقعة التي يعيشون فيها ؛ وفي هذا كان سرفانتيز نقيض السير وولتر سكوت (الكتاب الإنجليزي في القرن التاسع عشر) الذي أراد في عصره أن يعيد الفروسية إلى الوجود والحياة . ثم أراد الكتاب فوق ذلك أن يصور لنا ضرباً من الناس يعيش في أوهامه ، وتتملكه فكرة خاطئة فتتحكم في سلوكه كأنما هي حق واقع .

وإننا في روايتنا لقصة الأدب في العالم لتتعلم درساً من هذا الكتاب ومؤلفه ؛ فسرفانتيز مثل يصح أن يساق دليلاً على استحالة التنبؤ بالسن التي يظهر فيها نبوغ النابغ ؛ فقد حاول سرفانتيز في شبابه أنواعاً كثيرة من الكتابة نثراً وشعراً ، ولم تبدُ فيما كتب علامات النبوغ ؛ ثم لم يبدأ في كتابة هذا الأثر الخالد « دون كيشوت » إلا وهو في سن السابعة والحسين فحاء كتاباً في طليعة الآداب العالمية ، ولم يتردد « السير وولتر رالي » الناقد الإنجليزي في القول بأنه « أحكم وأعظم كتاب في العالم » .

ودون كيشوت مثل يصح أن يساق أيضاً لتفنيد الرأي القائل بأن الأثر الأدبي العظيم لا بد من وضع خطته كاملة في ذهن منشئه قبل الشروع في إنشائه ، فقد بدأ دون كيشوت بغير ما انتهى إليه ، إذ كان ينحرف الكتاب في طريقه هنا وهناك عفواً الساعة ، فيها هو ذا « سانكو بانزا » أحد الشخصيات الرئيسية في الكتاب ، لم يدُر بخلد سرفانتيز إلا بعد أن سار في القصة شوطاً بعيداً ، بل إن هذه الشخصية نفسها حين ارتسمت أول الأمر في ذهن الكاتب لم تكن كاملة الأجزاء إنما أخذت تتكامل كلما مضى في قصته .

وأخيراً تدلنا عظمة سرفانتيز على خطأ الرأي القائل إن العبقرى ينبت في عصر

الازدهار ، فقد كان سرفانتيز معاصراً لشكسبير ، ومات هذان النايبغان في عام واحد ، أما سرفانتيز فكان قد بلغ نضجه بعد أن تجاوزت إسبانيا أيام مجدها ، وأما شكسبير فقد ازدهر وأينع عندما خرجت بلاده ظافرة على « الأرمادا » الإسبانية ، وكم قال النقاد وأفاضوا في القول بأن العظمة الأدبية في عصر اليصابات نتيجة لعظمة إنجلترا في السياسة والنجارة عندئذ ، فمن قائل إن روايات شكسبير ومارلو ، وترجمة شاپمان لقصيدتي هومر ، وغير هذه وتلك من آيات الأدب الرائعات في عصر اليصابات ، نتيجة مباشرة لانقصار الاسطول الإنجليزي على الاسطول الإسباني ، إذ وسع هذا النصر الأفق العقلي عند الإنجليز وأيقظهم ليعصروا ما هم فيه من عظمة ومجد ، لكننا نقول : هل كتب « العهد القديم » حين كان اليهود سادة العالم ، وهل أنشد هومر ملحمتيه لما بلغ اليونان أقصى مجدهم ، وهل تفجر من رابليه كتابه « جارجانتوا وبانتاجريل » إذ كانت فرنسا ظافرة في حروبها ، وأخيراً كيف أنتجت هزيمة الأرمادا شكسبير في إنجلترا وسرفانتيز في إسبانيا في وقت واحد ؟ إن كان شكسبير نتيجة النصر العظيم فهل جاء سرفانتيز نتيجة الهزيمة المذكورة ؟ كم يبهرنا التعليل بعمق الفكرة فيه ، مع أن عمق الفكرة قد لا يخفى وراءه من الحق شيئاً ، ولعل سرفانتيز كان يرمى بكتابه ، فيما يرمى إليه ، إلى مهاجمة « الأفكار العميقة »

هكذا تجلت النهضة الأدبية الإسبانية في سرفانتيز ، ولقد شهدت النهضة في إسبانيا — كما شهدت في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا — اتجاهاً عاماً نحو الشعور القومي والإحساس بالوطن ، وظهر ذلك الاتجاه فيما نتج عندئذ من آداب وفنون ؛ وكان سرفانتيز لإسبانيا إذ ذاك لسانها الناطق ؛ ولو استثنينا روايات شكسبير ، لكان كتاب « دون كيشوت » أجمل ما أنتجه عصر النهضة في أوروبا على الإطلاق .
وشاء الله أن يلفظ سرفانتيز وشكسبير آخر أنفاسهما في يوم واحد .

لوبي دي فيجا Lope de Vega (١٥٦٤ — ١٦٣٥) :

بلغت إسبانيا نهاية مجدها عام ١٥٨٨ حين أصيب أسطولها العظيم « الأرمادا » بهزيمة نكراء أمام الأسطول الإنجليزي ، وكان سرفانتيز إذ ذاك في الأربعين من

عمره ؛ وكان بين البعارة الإسبان شاب لا يزال في فتوته وهو « لوب دى فيجا » الذي عاد إلى وطنه سالمًا ليكون مؤسس المسرح الإسباني وزعيم الأدب هناك في القرن السابع عشر ؛ وهو رجل ذاع صيته في بلده ، لكن قل من يعرفه في سائر البلدان ، على خلاف زميله سرفانتيز الذي أصبح أديب العالم أجمع ؛ وقد كان « لوب » غزير الإنتاج إلى حد تدهش له العقول ، إذ أنتج ما يقرب من ١٨٠٠ رواية تمثيلية ! وصلنا منها ما يقرب من ٤٧٠ رواية . وذلك إلى جانب ما أنشأه من غير الروايات كالملاحم والأغاني الريفية والأقاصيص ؛ والعجيب أنك لا تجد بين هذا الإنتاج الخصب شيئًا واحدًا يصح أن يتخذ نموذجًا لأدبه ونموغه ، ولعل كثرة الإنتاج من شأنها دائمًا أن تؤدي إلى مثل هذه الحيرة عند الاختيار ؛ لكننا يجب أن نعجب بهذا الكاتب الذي استطاع أن يكتب الرواية من ذوات الفصول الثلاثة في اليوم الواحد !

لم يكن « لوب » في تصويره لشخصياته يتقيد بنماذج معينة فهو يطلق الشخصية على سميتها لتكون مطابقة للحياة الإنسانية الصحيحة ، ولم يأبه قط للأوضاع والقيود التي يحتمها أصحاب المذاهب النظرية من رجال النقد ، وهو في تلك الثورة شبيه بمعاصريه الروائيين في عصر المصائب في إنجلترا ؛ ولو قارنا بينه وبين شيكسبير لقلنا إن له ما لشكسبير من نظرة إنسانية واسعة عميقة ، ومن قدرة في الملهاة فائقة ، بحيث استطاع أن يرح النظارة رجًا من الضحك ، لكنه بالطبع لم يبلغ ما بلغه ذلك الجبار من أوج ، وخصوصًا في المأساة ، وعلل ضعفه في الشعر هو الحائل المنيع الذي صدّه عن مجارة شيكسبير في المأساة كما جراه في الملهاة ؛ أو لعل كثرة إنتاجه وسرعته هالة ضعفه ، فقد كتب عشرة أمثال ما أنتجه شيكسبير .

بمرو كالدرور Pedro Calderon (١٦٠٠ - ١٦٨١) :

وأعقب « لوب دى فيجا » في الكتابة للمسرح « بيدرو كالدرور » الذي يعده العالم أعظم كاتب مسرحي شهدته اسبانيا ، وعللة هذا التفضيل أن العالم لا يعرف « لوب » حق المعرفة ؛ ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ « كالدرور » يكتب للمسرح بعد « لوب » حتى

أشرف القرن السابع عشر على ختامه ، وكان أقل إنتاجاً من سلفه لكنه كان أعظم منه شاعرية .

وقد ترجم « فترزجالد » Fitz Gerald — مترجم رباعيات الخيام الى الإنجليزية — ست روايات لكالدرون خيرها « عمدة زالاميا » وهي تبرز نواحي الضعف في كالدرون كما تبين جوانب المقدرة سواء بسواء ؛ فقد كان عسيراً عليه أن يسلك أجزاء الرواية في وحدة مسرحية متممة ، ففيها مأساة وفيها ملهاة بل وفيها ألوان أخرى من ضروب المسرحية ، لكنه لم يوفق الى صب هذه الأنواع المتباينة في قالب واحد متنسق كما استطاع شيكسبير حين ألف في بعض رواياته بين المأساة والمهابة — مثال ذلك « قصة الشتاء » — ؛ ومما يؤخذ على كالدرون فوق ذلك استطراده وانحرافه عن الجادة كما عن في سياق الرواية ما يغريه بالاستطراد والانحراف ، فينتج عن هذا أن تكون الرواية سلسلة من المناظر التمثيلية لا أكثر ولا أقل ؛ أضف الى ذلك أنه يورد في الرواية أشخاصاً لا داعي لوجودهم ؛ غير أن هذه العيوب كلها إنما تمس الرواية من حيث البناء والتأليف ، وذلك لا ينفي أن تستمتع بالرواية جزءاً جزءاً ، ففي كل منظر لذة فنية قائمة بذاتها وإن فشلت مجموعة المناظرة في أن تكون تأليفاً جميلاً .

ولئن فات « كالدرون » أن يكون رائعاً في تأليفه المسرحي ، فقد كان بغير شك بارعاً في مواهبه الأدبية من حيث جمال التعبير ، نغني بهذا أن رواياته كانت تعتمد في تأثيرها على جمال العبارة وقوتها لا على حوادثها وشخصياتها ؛ ومما يستحق الذكر أيضاً أن « كالدرون » كان أمهر في بداية الرواية منه في ختامها — وهو عيب ملحوظ في كثير من كُتّاب المسرحية — ، وأنه كان يقدم الشخصيات في سياق الرواية لكنه يعجز عن تصويرها من نواحيها جميعاً ، وبخاصة في شخصياته الهزلية ، فكثيراً ما كان بارعاً في تقديم الشخصية للوهلة الأولى ثم لا يستطيع أن يواصل تصويرها كما بدأها ، ولهذا ترى الشخصية في ملامه لا تضحك النظارة إلا بموقف واحد في أغلب الأحيان .

ومن رواياته التي ترجمها « فترزجالد » غير « عمدة زالاميا » « مُصوّر العار » ورواية « احذر الماء الذي ينساب هادئاً » وفيها تصوير بديع لأختين مختلفتي المزاج — هما كلارا ويوجينيا — أما الأولى فتحب الوداعة والتحفظ ، وأما الثانية فتحب المرح والنشاط ،

استمع إليها — مثلاً — إذ هما تتحدثان في غرفة من بيت أبيهما في مدريد :

كلارا — أحب في هذا المكان هدوءه .

يوجينيا — أريد الشوارع الصحابة ضهرة بجوانيتها وعرباتها وجنودها وسيداتها وفرسانها ؛ أريدها بما فيها من غبار الصيف ووحل الشتاء ، أريد مكانا تجلس فيه المرأة خلف ستار النافذة فتري كل ما يمر في الطريق .

ذلك هو كالدرون بعبوبه ومزاياه ، وقد وصفه « جيته » — وهو خير حكم في الإنتاج الأدبي — بقوله : « إن رواياته قد بلغت حد الكمال في فنها المسرحي » لكنه عاد في موضع آخر فقال عن شخصياته إنها متشابهة كأنها جنود صفت كلها في قالب من صفيح ؛ وحسبنا لكي نبين ما بلغه كالدرون من البراعة في الفن المسرحي أن نشير إلى قصة تروى عن خفير كان ذات يوم بين النظارة ، وجاء على المسرح منظر تماع فيه البطلة الاسبانية لعربي ، فانتفض الخفير شاهراً سلاحه يرد ذلك العربي عن ابنة وطنه ؛ ففي هذا دليل على ما في المنظر المسرحي من حياة وقرب من الواقع .

ولا نستطيع أن نطوى الحديث عن كالدرون قبل أن نشير إلى نوع من المسرحية أجاد فيه إجادة منقطعة النظير ، ونعني به تلك الروايات الدينية التي تشبه « رواية المعجزة » التي سادت في فرنسا وإنجلترا — وسيأتي وصفها عند الكلام على الأدب الإنجليزي في عصر النهضة — وذلك أن عادة جرت بأن يمر في الشوارع موكب فيه أشخاص يمثلون بملايسهم ومواقفهم بعض المناظر الدينية ، وقد ألف كالدرون من هذا النوع سبعين رواية .

لويبي دي كامينس Louis de Camoëns (ولد عام ١٥٢٤) :

وجدير بنا في هذا المقام أن نوجه نظرنا لحظة إلى جارة اسبانيا وأختها الصغرى ، وهي البرتغال ، فنذكر أمير شعرائها في القرن السادس عشر « دي كامينس de Camoëns » الذي كان بحاراً يضرب في المناطق البحرية المجهولة بسفينة ضئيلة ، فعلمته التجربة المرة القاسية كم عانى « فاسكو دي جاما » — المستكشف العظيم الذي دار حول رأس الرجاء — من أهوال ، فأنشد الشاعر ملحمة لا يغفل ذكرها مؤرخو الأدب الأوروبي ؛ ففي هذه الملحمة التي يطلق عليها اسم « لوسياداس » Lusíadas أي سكان لوسيتانيا أو اللوسيتانيون [لاحظ أن اسم البرتغال كما ورد في الأساطير هو لوسيتانيا] يقص قصة

أمته ، و يروى بطولة « فاسكو دي جاما » ، بل إنه ليمتجاوز ذلك فيجعل ملحمة قصة الكشف البحري أينما كان ، وقصة الكشف البحري تروعك بما بين الإنسان والموج من صراع عنيف جبار ، وبما في استكشاف الأراضي الجديدة من نشوة وانتصار ؛ فجاءت « لوسياداس » أقوى ملحمة تدور حول أهوال البحر بعد « الأوديسية » ولو كان دي جاما شاعراً ، لما جرت شاعريته بأفضل من ملحمة « لوسياداس » ؛ وقد ترجمها إلى الإنجليزية في القرن التاسع عشر « رتشارد بيرتن Richard Burton الذي كان مثل « دي كامينس » شاعراً ومغامراً .

وكان لهذه الملحمة فضل وطني عظيم ، وذلك أنه لما احتل الاسبانيون لشبونة — عاصمة البرتغال — وجعلوا لغتهم الكاستيلية لغة البلاد الرسمية ، وقفت ملحمة « لوسياداس » وحدها تحتفظ باللغة التومسية ، وتثير في البرتغاليين غيرة على لغتهم أن تجتاحها لغة الاسبان الفاتحين ؛ وإن في هذا مثلاً قوياً يساق لقدرة القلم أحياناً على أن يقرر مصائر الأمم .

نهضت اسبانيا — كما رأيت — في القرنين السادس عشر والسابع عشر نهضة زاهرة ، لسكنها عادت فهوت إلى الخضيض في انتاجها الأدبي ، حتى إنك لا تسكاد ترى فيها في القرنين التاليين أديباً واحداً يستحق أن يذكر إذا ما أردت أن تقص قصة الأدب في العالم .